الفصل الثامن

الحكومة والعدالة

كان المجتمع الذى ينتمى إليه المسلم بالنسبة له هو مركز العالم ومحدد بتقبل حقيقة الله ، وقبوله قانونه . وفى العالم الإسلامى كانت هناك دولة الخلافة وحاكم واحد ، هو الخليفة الرئيسى الشرعى لدار الإسلام والحاكم الأسمى للدولة الإسلامية .

لقد كان هذا المفهوم فى القرن الأول أو نحوه من التاريخ الإسلامى يطابق الواقع . لقد كون الإسلام فى الواقع مجتمعا واحدًا ودولة واحدة وكان تقدمه سريعًا وبلا عوائق ، ولابد أنه كان يبدو من الواضح ومن المؤكد بالنسبة للمعاصرين لهذا أن التقدم السريع والاكمال المميز لعميات الفتح سيجلب قبل ما مضى وقت طويل كل الجنس البشرى إلى الجانب الإسلامى .

فى خلال القرن الثامن . . كان إسلام العرب قد وصل حدوده ، وبالتدريج تقبلت فكرة أن التوسع الحتمى للدولة والعقيدة الإسلامية سوف يتوقف ، لقد أحل التخطيط للاستيلاء على القسطنطينية ولكنه استؤنف بعد عدة قرون بواسطة الاتراك العثمانيين فى موجة جديدة للفتح الإسلامى ، والتى بدورها توقفت فى منتصف أوروبا . وبالتدريج . . بدأ المسلمون يتقبلون فكرة أن الإسلام له حدود ، وأن هناك مجتمعات أخرى ودولا أخرى فيما وراءه . أما مفهوم المجتمع الإسلامى العالمى الواحد والذى يضم كل الجنس البشرى . . قد توقف وترك تحقيقه للمستقبل طبقا للنبوءة .

فى العالم الآن ظهرت فكرة وحدة وعالمية الدولة الإسلامية ، وأحيانا كانت تظهر مماليك متصارعة داخل الإمبراطورية الإسلامية ، وفى أحسن الأحوال . كانت تعترف اعترافًا اسميًا بسلطة الخليفة ، وفى وقت ما ظهرت أكثر من خلافة ، وبعد أن دمر

المغول خلافة بغداد فى ١٢٥٨ م كانت الوحدة السياسية النظرية للإسلام فى نهايتها . ومع هذا . . فإن الفكرة المثالية للحكومة الإسلامية الواحدة ، كانت لاتزال تسيطر على عقول الحكام المسلمين الذين ظهروا بعد عصر الخلافة . وأحد أبرز الملامح المميزة للدول الإسلامية فى العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر ، هو غياب الكيانات العرقية والاقليمية ، أو حتى الالقاب العرقية والاقليمية ، للحكام مثلما نجد فى أوروبا ؛ حيث نجد منذ وقت مبكر ملك فرنسا وملك انجلترا وملك الدانمرك وكثيرين آخرين .

وفى الشرق الأوسط الإسلامى . . لم يكن هناك شىء مثل هذا ، فمن ناحية هذا التنوع وعدم الاستقرار للدولة فى فترة العصور الوسطى ؛ حيث كان من غير الشائع تمامًا لحاكمين متعاقبين أن يحكما نفس الأقاليم بنفس الصورة ، ولكنه ظل من ملامح النظام الملكى الإسلامى الاسمى حتى فى فترة ، ما بعد العصر المغولى ، عندما كانت الدولة أو الولايات بشكل عام مستقرة نسبيًا .

وفى ١٥٠٠ م . . كانت هناك ثلاث دول ذات أهمية فى منطقة الشرق الأوسط هى تركيا وإيران ومصر ، وبالغزو العثمانى لمصر وتبعيتها لها أصبحت هناك دولتان ، ولكن الألقاب التى كانت تطلق عليهم مثل سلطان تركيا وشاه إيران وسلطان مصر ، كانت تطلق عليهم من منافسيهم ، أو من الخارج ولم يكونوا هم أنفسهم يطلقون هذه الألقاب .

كانت هذه الألقاب فى الاستخدام الأوروبى بحتة ، وكان الحكام يطلقون الألقاب على بعضهم البعض ؛ فقد كان هذا يعنى أن اللقب الاقليمى انظر ص ٢٣٠ على أنه محلى ومحدد ، وعندما كان حكام تركيا وفارس ومصر يتكلمون عن أنفسهم . . كانوا يطلقون على أنفسهم لقب حاكم الإسلام ، أو حاكم شعب الإسلام أو أراضى الإسلام ، وليس حاكم تركيا أو فارس أو مصر .

وكان هناك لدى المسلمين مثل ما لدى الشعوب الأخرى من اتجاه لرؤية الآخرين كانعكاس لأنفسهم ، وبينما كان الإسلام يؤخذ كوحدة واحدة . . كان من الطبيعى

التفكير فى دار الحرب بنفس الاصطلاحات ، التى كانت تطلق على الكفار ؛ خاصة هؤلاء الذين كانوا يعيشون فيما وراء الحدود الإسلامية .

وبينما كان المؤرخون يركزون على الاجزاء ذات الأهمية الحقيقية للتاريخ ؛ أى الشئون التى تخص مجتمع الله والحكام المعنيين ، ويهملون تلك التى تخص الكفار البرابرة فيما وراء الحدود الإسلامية . . كانت هناك دول إسلامية مرغمة بصورة متزايدة على التعامل بشكل أو بآخر مع هؤلاء البرابرة ؛ ولذلك كان عليهم أن يجمعوا عنهم بعض المعلومات وإن كانت قليلة .

لقد كانت النقطة الأولى ذات الأهمية فى التعامل مع الكفار هى تحديد وتسمية الحكام المتلفين ، وقد اثار ذلك بعض المشاكل المهمة . إن التقاليد الإسلامية المبكرة التى ترجع إلى الوقت الذى كان فيه الإسلام مقصورا على شبة الجزيرة العربية ، وقد حددت أسماء ثلاثة حكام كانوا يحكمون المناطق المحيطة وهم كسرى Kisra وقيصر Qaysar والنجاشى Nagash ولايذكر أى واحد من هؤلاء فى القرآن بالاسم ، ولكن الاشارات القرآنية العرضية إلى الدولة المحيطة قد شرحت فى التعليمات والأحاديث المنقولة ، وأدخلت الكلمات الثلاثة إلى العربية ربما عن طريق الآرامية . فكلمة كسرى Kisra من Chosrse khusraw واحد من أعظم حكام إيران المتأخرين من الأسرة الساسانية ، وقيصر Qaysar ا شتقت من Coesar ، والنجاشى Nagash من Nagu ، ويبدو أن الالقاب الثلاثة قد استعملها المسلمون الأوائل على أنها أسماء شخصية ، لا على ألقاب للدلالة على الحكام ، الذين كانوا يحكمون فى ذلك الوقت فى الاقطار الثلاثة المهمة المعروفة لهم ، وطبقا للقول المنسوب إلى محمد إذا فنى كسرى . . فلن يكون هناك كسرى بعده ،وإذا فنى قيصر . . فلن يكون هناك قيصر . . بعده ، وستنفق خزائنهم فى سبيل الله[1] .

لقد فنى كسرى ولم يكن هناك كسرى بعده ، فلقد انتهت الدولة الساسانية وألحقت ببيت الإسلام House of Islam كما انتهى عصر الاباطرة Zoroas-trians أما المملكة المسيحية الاثيوبية قد بقيت ، ولكنها احيطت من كل جانب ، وأصبحت إلى حد ما غير

ذات أهمية ، وظلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية فقط كجار ومنافس للإسلام ، ولم يستخدم لقب قيصر إلا نادرًا للإشارة إلى الاباطرة البيزنطيين . وكان هؤلاء الاباطرة يتنادون أحيانا بألقاب مهنية . وهناك لقب شائع هو طاغية Toghiya أى Tyrant ، وقد استخدم فى ما بعد أيضًا للإشارة إلى الحكام الأوروبيين . وذلك بواسطة كتاب شمال أفريقيا ، وهناك أيضًا صيغة للخطاب استخدمت فى خطاب أرسل بواسطة الخليفة هارون الرشيد إلى الامبراطور البيزنطى نيكيفوراس Nikephoras والذى يبدأ بـ « من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيكيفوراس كلب الروم ، تحية »[٢] .

أما أكثر الاصطلاحات استخداما فى الإشارة إلى الاباطرة البيزنطية وكذلك إلى حكام المسيحية فهو ملك Malik أى King والكلمة العربية ملك فى القرآن والأحاديث والسنة مثل نظيرتها فى العبرية ملخ Melekh فى الأسفار المبكرة للعهد القديم ، تحمل إشارة ضمنية سلبية عندما يطلق على الحكام الأدميين على أنها سلطة دنيوية لادينية . فى القرون الإسلامية المبكرة وفى نطاق الأراضى الإسلامية . . استخدمت كاصطلاح للتمييز بين الحكم الكافر والتعسفى للحكام الدنيويين وبين الحكم المشرع سماويا للخليفة إن تصور فكرة أو اصطلاح الدولة لم يأخذ حقه من الاعتبار بين المسلمين ، إلا بعد ظهور النظام السياسى الفارسى مرة ثانية فى بلاد الإسلام . حتى فى ذلك الحين . . بقى هذا التصور ضمنيا سلبيا ، واضحا فى الاصطلاحات المهنية التى كانت تطلق على حكام المسيحية مثل ملوك الكفر وملوك الكفار .

وكان لقب ملك يطلق كثيرا على طبقة واحدة من الحكام ؛ فالإمارات المسيحية التى أسسها الصليبيون فى الأراضى المأخوذة من المسلمين ، تبدو وكأنها تنقصها ولو الشرعية الضئيلة للحكام الأوروبيين فى نماذج الاستخدام المكتوبة ، فى مجالس العدلية المصرية لمخاطبة ملوك قبرص وأرمينيا الصغرى واستبدلت كلمة ملك باللفظ متملك ؛ أى متصنع الملك وهو غير ذلك فى الواقع ، واستخدمت نفس كلمة ملك بلا تمييز للإشارة إلى الامراء الفرنجة وزعماء القبائل الأفريقية والاباطرة البيزنطيين والهنود الصينيين وكذلك حكام أوروبا .

ومن أجل مراسلة الحكام . . لابد أن يكون هناك تحديد أكبر ، إن الأمثلة الإسلامية المبكرة لمثل هذه المراسلة هى خطابات تدعى Alleged أنها تبودلت بين النبى محمد ﷺ وحكام الأقطار الثلاثة المحيطة بالجزيرة العربية ، ، إن صحة هذه الحقائق وقد وضعت محل خلاف فهى بكل تأكيد من وقت مبكر جدًا ، وتنفع كدليل على المعاملات مع الحكام غير المسلمين . إن الحكام الثلاثة قد خوطبوا بأسمائهم متبوعة بالألقاب ، التى غالبا ما تكون ملكًا وأحيانًا فى نصوص مطابقة لهذه كانت كلمة سيد Lord (صاحب) .Sahib ، أو القوى azim (عظيم) Mighty وباسم المقاطعة أو الشعب المحكوم . وهكذا . . كان الامبراطور البيزنطى يخاطب بلقب ملك أو صاحب أو عظيم الروم ، النيجوس Negus يخاطب بأنه نجاشى أو ملك أثيوبيا وهكذا . أما صيغة التحية فهى مختلفة عن تلك المستخدمة مع الحكام المسلمين . فعندما يكاتب حاكم مسلمًا حاكمًا أو آخر فإنه يستخدم التحية الإسلامية الكلاسيكية ، السلام عليك Peace be with you. وعندما يخاطب حاكمًا غير مسلم . . فإن التحية تكون السلام على من اتبع الهدى Peace be with those who follow the right path ، وهذه إلى حد ما تحية غامضة أصبحت مقياسا فى مخاطبات الحكام غير المسلمين . وكان السفير المراكشى غسانى يصر على تحية ملك أسبانيا بهذه الكلمات عندما يستقبله على الملأ . فقد لاحظ أن الطاغية الاسبانى قد دهش لما سمع هذه الصيغة التى ليس لها مثيل من قبل فى المخاطبة ، لكنه تقبلها مرغما نظرًا لأنه يعلم أن السفير مصر على ألا يستعمل صيغة غيرها [٣] .

تنقصنا المعلومات من المراسلات الدبلوماسية مع القوى غير الإسلامية فى القرون المبكرة ، مع أنه يبدو من المحتمل أن العبارة البعيدة عن الذوق « كلب الرومان » المكتوبة فى عشية اندلاع الحرب هى استثناء أكثر منها قاعدة . تأتى أفضل المعلومات التى لدينا فى مثل هذه الأمور فى فترة العصور الوسطى الإسلامية من مصر ، ولدينا خبر مبكر جدًا عن تبادل الخطابات غير المسلمين ، منهم الامبراطور البيزنطى المشارك Byzantine Coemperor وهذا الخبر يؤرخ من القرن العاشر [٤] .

من هذا أخبار تعد جيدة إلى حد ما فى الأدب المصرى البيروقراطى ، وكذلك عدد من الوثائق المحفوظة فى الأرشيفات الأوروبية .

وحقيقة . . فإن المعلومات الكاملة ليست متاحة حتى عصر العثمانيين الذى حصلنا عنه ، ولأول مرة ، لا على تواريخ وأخبار فقط ، بل على وثائق عديدة أيضًا . من تلك التواريخ ، أو الأخبار . . يستطيع المرء أن يدرك أن العثمانيين لم يهتموا اهتمامًا كبيرًا بالالقاب الأوروبية الصحيحة . وحتى كمال باشا زاده Kamalpasazade مؤرخ سليمان العظيم ، يشير إلى الحكام الأوروبيين الرئيسين كبك فرنسا bey of France وبك إسبانيا وبك ألمانيا . وهو لقب أعطي فى الامبراطورية العثمانية لمجرد حاكم إقليمى . وبنفس الروح والأسلوب عندما يشار إلى الشعوب والأقطار التي يحكمها هؤلاء الحكام الأوروبيون ، حتى فى الخطابات الملكية الموجهة على أنها ولايات ، وهو الاسم المطبق على تقسيمات وولايات الدولة العثمانية .

وتستخدم النصوص العثمانية بشكل أكثر شيوعًا مصطلح كيرال Kiral للحكام الأوروبيين بألقابهم الصحيحة ، كما حددوها بأنفسهم ، ولكن دون مشابهتهم للمناصب الإسلامية الرئيسية . وهناك خطابات إلى الملكة اليزابيث الأولى ملكة انجلترا تبدأ بـ « فخر أتباع عيسى الأفضل ، أكثر السيدات تبجيلا فى المجتمع المسيحى ، مديرة شئون العقيدة النصرانية Nazarene التى تستحق أعظم آيات الاحترام والتبجيل ، ملكة أراضى انجلترا ، فلتكن نهايتها سعيدة مباركة Blissful »[٥] ، هذا اللقب الشائع فى كل الخطابات الموجهة إلى الحكام المسيحيين الأوروبيين يشير إلى التصنيف الدينى الرئيسى المأخوذ لدى العثمانيين أن شخصية الملكة اليزابيث المسيحية ، قد أكدت فيما لايقل عن ثلاثة مرات ، قبل أن يبدأ كاتب الوثيقة الكلام عن انجلترا . لقد كانت الملكة واحدة من حكام المسيحية . وفى نطاق هذا الكيان الأكبر . . فإنها تحكم أرض (ولاية) انجلترا . والغير من مثل صيغة الدعاء النبوى المذكور أعلاه ، تعبر عن الأمل فى أن تصبح مسلمة (أى الملكة) قبل موتها وهكذا تكسب الرحمة الأبدية .

فى عصر اليزابيث كانت المعلومات عن أرض انجلترا قليلة ومهام حاكمها فى تركيا .

وقد كانوا يعرفون أكثر - وهذا شيء طبيعي - عن دول وسط أوروبا ؛ حيث خوطب الأمبراطور فى بروسيا بنفس الصيغة ، ولكن تتبع بصيغة قريبة من ألقابهم الصحيحة .

وظل المجلس العثمانى لوقت طويل يرفض إضفاء أى لقب أكبر من ملك للحكام المسيحيين ، بينما كان سلاطين مراكش يستخدمون اصطلاح سلطان بحرية أكثر تجاه الحكام المسلمين الآخرين ، وكذلك الحكام الأوروبيين المسيحيين ، أما العثمانيون .. فقد قصروا هذا اللقب على أنفسهم حقدًا وغيرة منهم ، بل إنهم نادوا الحكام المسلمين الآخرين بألقاب أقل من تلك التى ينادى بها الحكام الأوروبيون ، حتى الامبراطور الرومانى المقدس كان عادة يخاطب بأنه ملك فيينا ، وهذا الاصطلاح فى البروتوكول تعبير للتقليل والتصغير ، وأول حاكم أوروبى يعطى له لقب أعظم إلى حد ما من الألقاب السابقة ، هو فرنسيس الأول حاكم فرنسا الذى أشير إليه فى المعاهدة ا لفرنسية العثمانية ، بأنه باديشاه ، وهو لقب من أصل فارسى ، يشير إلى حكم سامى ، وأحيانا كان يطلق على السلاطين العثمانيين أنفسهم . ويعتبر إطلاقه على ملك فرنسا تنازلاً عظيما . وحتى القرن الثانى .. لم تكن ألقاب التعظيم والتمجيد مسموحة للحكام النمساويين والروس ، والأوروبيين الآخرين . وكان التقليد هو إضفاء ألقابهم الخاصة بهم عليهم ، وكان الامبراطور النمساوى يخاطب بكاسار Casar من قيصر Kaiser ، والروس Czar .

ولقد اعتقد الروس أن دخولهم عام ١٧٧٤ م فى معاهدة Kucuk Kaynarja أمر عظيم الأهمية ، هذه المعاهدة التى يفرضون فيها إرادتهم على الامبراطورية العثمانية المهزومة .

وتؤكد المادة ١٣ فى المعاهدة هذا « لقد تعهد الباب العالى بإستخدام اللقب المقدس لإمبراطور روسيا فى كل الأعمال العامة والخطابات ، وكل الحالات الأخرى باللغة التركية بمعنى تمامين روسيليرين باديجاه Temamen Roussielerin Padischag أن تضمن المادة اللغة التركية فى النص ، لهو أمر جدير بالملاحظة » .

وهناك مذكرة روسية معاصرة عن المعاهدة لاحظت هذه النقطة مع ملاحظة

المكاسب الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية ، كواحدة من انجازات المعاهدة . إن النفور العثمانى من اضفاء هذا اللقب على الحكام الأجانب ، كان أكثر من مجرد أمر من أمور البروتوكول . لقد كان له جذور فى المفهوم الإسلامى العثمانى للياقة والذوق ، ويمكننا أن نرى هذا فى تقرير كتبه ضابط تركى ، كان مرافقا للسفير التركى إبراهيم باشا إلى فيينا فى ١٧١٩ . ويشير الكاتب - الذى لم يكن دبلوماسيا أو بيروقراطيا (أى موظفا) - بل كان جنديا يكتب بأسلوب تركى بسيط ومباشر إلى الامبراطور النمساوى بكلمة Kaiser مكتوبة بالخط التركى . ويشرح هذه الكلمة غير المعتادة لقرائها ؛ فهو يلاحظ أن هذه الكلمة تعنى فى اللغة الألمانية باديشاه Padisah ولكى يتجنب المشابهة غير اللائقة أو المقارنة غير اللائقة نجده يضيف كلمة التشبيه La-tesbih والتى تعنى شيئا مشابها للتعبير الانجليزى God save the mark لاقدر الله [٦] .

لقد اهتم العثمانيون بالتمييز بين سلطتهم الإسلامية ، وبين تلك التى تخص حكام أوروبا الأقل منهم ، وهذا يبدو واضحا فى أسلوب ، بل وفى عناوين الكتابة فى الخطابات ، لقد كتب السلطان مراد الثالث لملكة انجلترا اليزابيث فى ١٥٨٣ « إن بابنا العالى مفتوح فى صفح وإحسان لهؤلاء الذين يعرضون ولاءهم ، إن قلوبنا المملوءة بالسعادة والخير مفتوحة (مستعدة أو جاهز لـ . . .) لهؤلاء الذين يظهرون إخلاصهم . أن مبعوثه يتلقى تحية . . مثل تحية المبعوثين من قبل الملوك الاخرين ، الذين يعرضون الثقة والولاء لبابنا السامى ، وتمنينا العظيم سيعنى بهم ، ويحمون لذلك . أنت من جانبك دائما باقين على صداقتك وولائك لبلاطنا ، ثابتة القدم على طريق الثقة والولاء مستمرة وثابتة على طريق الصداقة والولاء » [٧] ، وأن هذه الصيغ الأخرى الأقوى منها الشائعة فى المراسلات مع الحكام الأوروبيين ، إنما تعكس توقعا سابقا للاذعان الأوروبى فى مثل هذه العلاقة .

لقد كان السفراء المسلمون وهذا لايدهشنا - يعطون كل انتباههم أو أهتمامهم للحكام المعتمدين لديهم . أما الشخصيات الأقل تكافؤا لايعطونهم إلا اهتماما ضئيلا .

وذلك يذكر عادة بشكل رئيسى فى سياق اجتماعاتهم ومراسلاتهم أو تبادلهم معهم . إن غسانى يناقش الظاهرة المميزة الخاصة بميراث الألقاب - حتى بالنسبة للإناث - وشغف الإنسان بالحصول على الألقاب سواء عن طريق الاستحقاق والحرارة أو الاقتران والزواج . ويعرض محمد سيد أفندى للقراء شرحا مختصراً لنظام الحكومة الفرنسية .

لديهم العديد من الوزراء Viziers يطلقون عليهم ministres ومن هم برتبة أقل مارشال ودوق . وكل واحد منهم يختص بأمر معين ؛ ولايتدخل واحد منهم فى عمل الآخر ، وكل منهم مستقل فى العمل المكلف به . والمذكور أعلاه (رئيس اساقفة archbishop of Cambrai) كان مسئولا عن الشئون الخارجية ، ولديه السلطة للتعامل مع مثل هذه الأمور ، مثل : القيام بالحرب أو توقيع سلام ، ويعتنى بالشئون الاقتصادية ، ويتعامل مع السفراء القادمين من المناطق الأخرى ، ويعين ويفصل السفراء الفرنسيين لدى صاحب السعادة باسطنبول [٩] .

وحتى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . . لم يبدأ المعوقون المسلمون ، والزوار الآخرون إلى أوروبا فى إعطاء أى اجتماع للجهاز الفعلى للحكومة ، والموظفين الأقل فى المرتبة من الموظفين الرئيسيين . وبالتأكيد أكثرهم أهمية عزمى أفندى ، السفير العثمانى لبرلين من ١٧٩٠ - ١٧٩٢ ، وهو مثل الزوار والكتاب والعثمانيين ، الآخرين يعكس تغيرا مسلموسا فى الرأى نحو الأوروبيين ، الذين لم يصبحوا الآن كفارا جهلاء فقط يستحقون الذكر بسبب عرابتهم المسلية ، وعلى العكس . . أصبحوا الآن أقوياء وأفرادا متطورين ، حيث يجد أن تدرس أساليبهم لاستخدامها ضدهم وربما لهذا الغرض لتقليدهم . ان تقرير عزمى يبدأ بصيغة وصفية معتادة لرحلاته ونشاطاته والجزء التالى من تقريره ذو أهمية أعظم ، والذى يعرض فيه وصفا لمملكة بروسيا تحت عناوين مختلفة : إدارة الدولة للسكان ، الوظائف الحكومية العليا ، الحالة المالية ، مستودعات الطعام الحكومية ، ترسانة الأسلحة والذخيرة ومستودعات المدفعية ، ويبدو أن عزمى أفندى تأثر بدرجة كبيرة بتنظيم الحكومة البروسية ؛ وخاصة كفاءة جهاز الدولة وكفاءة موظفيه ، وغياب الموظفين غير المؤهلين الذين لاضرورة لهم ، ونظام المرتبات

والترقيات ، ويتكلم عن الجهد الروسى لتوطيد الصناعات ، وأسهب فى الكلام عن الهدوء الداخلى وأمن المملكة البروسية ، وهو يضفى مدحا خاصا على النظام الحالى والخزانة . وللجيش الروسى ونظم تدريبه ، التى أصبحت مصدرًا مهما للمسئولين العثمانيين ، الذين يسعون لتنظيم عسكرى أفضل ، ولم يقنع عزمى أفندى باقتراحاته المنتظمه فى كلامه ، بل أنهى تقريره بسلسلة من التوصيات لتحسين حالة الدولة العثمانية والملاة عليه بخبرته ، التى اكتسبها هناك وهذه التوصيات هى :

١ - محو الفساد الذى هو سبب الطغيان والخراب فى الدولة العثمانية .

٢ - تطهير جهاز الدولة وذلك لتوظيف الاكفاء فقط فيه .

٣ - كل موظف يتقاضى راتبه طبقا لطبيعة العمل المكلف به .

٤ - طالما أن الموظفين لايرتكبون ما يضر النظام ومبادئ الدولة ، فلايجب أن يفصلوا من وظائفهم .

٥ - لايجب أن يعين أفراد غير مؤهلين في وظائف لاتناسبهم .

٦ - يجب أن تتعلم الطبقات السفلى التى تجاهد عبثا لتقليد الطبقات العليا .

٧ - يجب على القوات المسلحة خاصة المدفعية والبحرية (أن تتدرب جيدًا وتكون مستعدة لمواجهة أى طوارئ فى الصيف والشتاء على السواء . وإذا حدث هذا . . فإن حلفاء الدولة العثمانية سيزيدون قوة وحماسة ، وسينهزم أعداؤها بهذا الأسلوب [١٠] .

ومن وقت لآخر . . كان الكتاب المسلمون الذين يكتبون عن أوروبا الغربية يلاحظون خروجا عن النماذج المعتادة للملكية ، منها مثلا حكم المرأة فمعنى مجتمع يعترف بتعدد الزوجات ونظام الخليلات كنظام معتاد وخاصة بواسطة الحكام . فإن ظهور امرأة كحاكمة غير محتمل . وحقيقة كان هناك قليل من النساء المشاهير الذين استطاعوا تحقيق قوة عظيمة وحتى فى سياق هذا الكلام كانت فترة حكمهم قصيرة ، ومع هذا لم تكن الملكات غير معروفات بالنسبة للعالم الإسلامى ؛ فلقد رأوا ملكات فى بيزنطة

المجاورة ، وفهموا مبدأ الخلافة على العرش . وهناك مؤرخ مسلم معاصر ، فى وقت قريب من المعاصرة يتكلم عن الامبراطورة ايرين Irene التى حكمت من ٧٩٧ - ٨٢٢ ، وقد لاحظ : « لقد حكمت امرأة الروم لأنه فى ذلك الوقت كانت الوحيدة الباقية من البيت الملكى »[١١] لقد سجل مؤرخ مسلم وصول سفيرة من حاكم لومبارو فى إيطاليا المسماة بيرثا Bertha فى ٩٠٦ (اسم الحاكمة بيدثانيت لوثر) ، ولكن لم يعرض شيئا عنها أو عن بلدها . إن القلقشندى يضمن فيما أورده بعد عن « حاكمة نابولى » مايلى معتمدا على مخطوط مبكر عن عصره ، أن اسمها جوانا ، وأنه قد تم إرسال خطاب لها فى حوالى نهاية ٧٧٣ (١٣٧١) - بالألقاب التالية « إلى المعظمة الممجدة المكرمة ، المبجلة ، العظيمة الملكة المجيدة ، الحجة فى دينها ، فقط فى مملكتها ، عظيمة الدين النصرانى من دعامة المجتمع المسيحى ، حامية حدود اصدقاءها من الملوك والسلاطين ».

وقد لاحظ القلقشندى أنه « إذا كان سيخلفها فى مملكتها رجل فله أن يخاطب بنفس الألقاب فى صيغة المذكر ، أو بألقاب أعلى نظرًا لقوامة الرجل على المرأة »[١٢] .

لقد كان العثمانيون على معرفة جيدة بالملكات الأوروبيات الحاكمات من اليزابيث ملكة انجلترا إلى ماريا تريزا ملكة النمسا ، ومن الغريب أنه فى الوقت الذى يعلق فيه الزوار المسلمون بشكل دائم وبنفور على المناصب العليا المتاحة للنساء فى المجتمع المسيحى فإنهم يظهرون الاهتمام بالحاكمات النساء .

لقد ناقش عديد من الكتاب المسلمين السلطة الدنيوية للبابا ، وحاول واحد منهم ، وهو المؤرخ الفارسى رشيد الذين في كتابه عن تاريخ العالم المكتوب فى الأعوام الأولى للقرن الرابع عشر تحديد العلاقات بين البابا والامبراطور وملوك المسيحية الآخرين .

« إن نظام حكام الفرنجة Franks هو كالتالى : الأول فى الخط هو Pap والذى يعنى أبو الآباء وهم يعتبرونه خليفة المسيح ، يأتى بعده الامبراطور (Chasar) الذى ينادى فى لغة الفرنجة بـ Amperur وتعنى سلطان السلاطين ، يأتى بعده Reda Frans وتعنى ملك الملوك . ويحتفظ الامبراطور بحكمه منذ أن يصبح امبراطورا حتى وفاته .

وهم يختـارونه (انظر ص ٢٤٤) . أما Reda Frans فيحكم بالمـيراث عن أبيه ، وفى الوقت الحالـى . . يتمتع بنفوذ قوى واحترام عظـيم . ويوجد تحت امرته ١٢ حاكما ، ولكل واحد من هؤلاء الحكام يخضع ثلاثة ملوك ، وأخيرًا يأتى Re التى تعنى ملكا أو سيدا .

إن رتبة البابا عالية وعظيمة جدا ، وهم عندما يريدون تعيين امبراطور جديد . فإن سبعة من عظمائهم الذين يكون عملهم الاجـتماع والاستشارة : ثلاثة منهم برتبة ماركيز وثلاثة أمـراء وحاكم واحد ، وهم يستعرضون كل رجـالات فرنسا ، ويختـارون عشرة رجال من بينهم ، ثم بعد تدقيق واختبـار دقيق يختارون واحدا من العشرة ، مشهودا له بالكفـاءة وذا سلطة وعفاف ، كما أنـه مميز بعقيدته وورعـه وكرامته ونبله وكمـال خلقه وثباتـه ، ثم يضعون تاجـا من الفضة علـى رأسه فى ألمانيا ، الـتى يظنها الـفرنجة ١/ ٣ العالم .

من هناك يذهبون إلى لومبارديا ويضعـون على رأسه تاجا من الحديد ، ثم يذهبون إلى روما مدينة البـابا الذى يقف على قدمه ويضع على رأس المـتوج تاجا من الذهب ، ثم يلـقى المتـوج نفـسه تحت اقدام البابـا ويمسك رداءة . فيضـع البابا قدمه عـلى رأسه ورقبته ويخطـو فوقه ، ثم يركب حصانه . عنـدئذ يعطى لقب إمبراطور ويـصبح حكام الفرنجـة خاضعين له ، ويمتد نـفوذه على كل الأراضى والـبحار التى تقع تحـت سيطرة الفرنجة »[١٣] .

أن معلومات رشيد الدين Rashid al-Din جيدة ، ويبدو بوضـوح أنها جاءت من مصدر بابوى ، وهو يتبعها بسرد لتاريخ البابوات حتى عصره .

لقد كان هناك نوع آخر من الحكم أغرب من حكم النساء والكهنة ، قابله المسلمون فى أوروبا ويشـيرون إليه أحيانا فـى بعض كتبهـم . أن تصور الجمهورية لـم يكن بأى حال مألـوفا لمسلمى الـعصور الوسطـى لقد ظهر فى بـعض الكتابـات العربية منـاقشات ومجالات للكتابات السياسية الاغريقية ، حيـث ترجـم الاصطلاح الاغريقي Politeia

(فى اللاتينية res publica) أى (دولة أو جمهورية أو حكومة حرة) إلى الاصطلاح العربى مدينة madina .

إن التصنيف الذى أسماه أفلاطون السياسة الديمقراطية ، يظهر فى النصوص العربية الكلاسيكية باسم مدينة جامعية madina jamaiyya ، حتى فى المجتمع الإسلامى نفسه ؛ طبقا للقوانين المصاغة بواسطة الفقهاء السنين . . كانت الخلافة لاتورث وتتم بالانتخاب ، كما أنها خاضعة للقانون وليست فوقه .

ومع هذا . فإنه بعد الأربعين سنة الأولى وبعد أربعة خلفاء . . كان الحكم في الإسلام مثلما هو موجود فى أى مكان فى العالم فردى monarchical . كما أن الكتابات والمفاهيم الخاصة بالجمهورية التى ترجمت إلى العربية من الكتابات الفلسفيةالاغريقية لم يكن لها أى تأثير خارج دائرة ضيقة من الكتاب وقراءة الفلسفة والافتقار إلى هذا التأثير يبدو واضحا من حقيقة أنه ، عندما كانت حاجة للاصطلاحات للإشارة إلى الصيغ الجمهورية أو الأشكا ل الجمهورية للحكومة فى أوروبا فى مرحلة لاحقة . . فإنها كانت توضع دون معرفة ، أو إشارة إلى الكتابات أو الادب الفلسفى .

إن الشكل الجمهورى للحكومة يعرض بوضوح بعض مشاكل الشمول . وهناك قصة مبكرة جاءت فى تقرير عادى للعمرى Umari من حوالى ١٣٤٠ ، حيث :

« أن البنادقة لم يكن لديهم ملك ، ولكن شكل أو أسلوب حكمهم جماعى ، وهذا يعنى أنهم يتفقون بالإجماع على رجل يعينونه ليحكمهم . ان البنادقة باسم Banadiqa ، ورمزهم شكل إنسانى ذو وجه يعتقدون أنه للقديس مارك أحد الحواريين ، ويأتى الرجل الذى يختارونه ليحكمهم من إحدى العائلات المميزة منهم » .

بعد ملاحظة أن :

لديهم نفس نظام الحكومة ويعطينا العمرى معلومات أكثر تفصيلا إلي حد ما عن حبشوا البلد الأصلى لمبلغه أو مميزة الكافر المرتد عن الدين . « إن نظام حكومة الشعب فى جنوة عامة Communa منهم لم يكن لديهم أبدًا ملك ، ولن يكون حكمهم فى

الوقت الحاضر ينقسم بين عائلتين إحداهما هى بيت دوريا التى جاء منها بالبان . وأما الأخرى فهى عائلة سبينولا Spinola ، ويقول بالبان أيضًا إنه بعد هاتين العائلتين فى جنوا . . هناك عائلات جريمالدى ، ومالونو ، ودى مارى ، وسان توتورى ، وفيشى ، وأعضاء تلك العائلات مستشارون للحكام [١٤] .

يعطى القلقشندى متبعًا التثقيف إرشاداته للمراسلة مع جمهوريتين إيطاليتين ، هما جنوا ، وفينسيا (البندقية) وهو يقول عن جنوا :

« صيغة مخاطبة حكام جنوا : هم مجموعة من الناس من مناصب مختلفة أى منهم ، Podesta والكابتن والشيوخ . وطبقًا للتثقيف . . تكتب خطابات على الكوارتو ، ويتبعون الأسلوب التالى :

« هذه المراسلة تخاطب أصحاب السعادة الممجدين المحترمين المكرمين الموقورين بودستا ، وكابتن وفلان وللشيوخ العظماء ، والمكرمين مديرى قضاء مجلس كوميون جنو الممجدين فى المجتمع المسيحى ، عظماء الدين النصرانى أصدقاء الملوك والسلاطين فليلهمهم الله القوى العزيز اتباع طريق الحق ؛ لتكليل جنودهم بالنجاح ويقودهم بالنجاح ويقودهم إلى الرأى السليم » .

ويضيف التثقيف :

فى بداية عام ٧٦٧ (١٣٦٥ - ١٣٦٦) أبطلوا ، وأصبحت المخاطبة والمراسلة للزوج الذى حل محلهم ، وقد لاحظ القلقشندى فى فينا :

صيغة مخاطبة حاكم فينا : الصيغة المعمولة بها اقتبست عندما أرسلت إجابة أو رد له فى عام ٧٦٧ ، وكان اسمه فى هذا الوقت ماركوكورنارد : لقد تلقينا خطاب صاحب السعادة الرويج العظيم ، الموقر المحترم الشجاع الممجد العظيم ماركوكورنارد ، فخر المجتمع المسيحى ، بهاء عقيدة الصليب دوج فينا ودالماشيا . سند دين أبناء المعمودية صديق الملوك والسلاطين .

وبعد إيراد الكثير من الأمثلة . . يضيف القلقشندى بتعليقه الخاص : « من كل

هذا تبين أن الدوج تختلف عن الملك . فى المثالين الأول والثانى . . كانت صيغة المخاطبة هى نفسها إلى حد كبير ، ولكن فى المثال الثالث كانت أقل من الاثنتين الأولى والثانية .

إذا كان الدوج هو الملك حقًا . . إذن فإن الاختلاف فى صيغة المخاطب يرجع إلى بعض الظروف ، أو إلى بعض الاختلاف فى الفرض الخاص بالكاتب ، أو نقص المعلومات لديه فيما يخص رتبة المخاطب ، مثلما يحدث بسبب ضغط العمل فى أى عصر كما هو واضح [١] .

إلى الشرق يظهر أن رشيد الدين قد سمع عن جمهوريات إيطاليا ؛ فهو يقول : « فى هذه المدن ليس هناك ملك بالوراثة . إن أكابر وعلية الناس ينصبون رجلاً ورعاً ذات حياة مستقيمة ويجعلونه بالاجماع حاكمًا لمدة عام ، وفى نهاية العام يصيح صائح « من عانى ظلمًا فى هذا العام فليتقدم بشكواه ، » كل هؤلاء الذين قد عانوا ظلما يقدمون أنفسهم ثم يسامحونه . ثم يختارون رجلاً آخر ، ويجعلونه حاكمًا . . فيما وراء هذا القطر (حول جنوا) هناك قطر آخر يسمى بولونيا ، وعاصمته مدينة عظيمة وفيما وراءها على ساحل البحر مدينة تسمى (البندقية) (ذكرتها بفينيسيا) ، وقد بنوا مبانيهم كلها وهى ترتفع عن البحر . حاكمهم لديه ٣٠٠ سفينة ، وهناك أيضًا لايوجد حاكم بالقوة أو باللين ، إن تجار المدينة ينصبون بالاجماع (أو الموافقة) رجلاً تقيًا صالحًا ، ويجعلونه حاكمهم ، وعندما يموت يختارون غيره ، وينصبونه حاكماً لهم [١٦] .

فى زمن العثمانيين . . كانت المؤسسات الجمهورية مألوفة ومفهومة بشكل أحسن . لقد حافظت الامبراطورية العثمانية على علاقتها مع جمهوريات راجوسا على الساحل الداعاشى وفينيسيا ، وجنوا والدول الايطالية الأخرى ، وكذلك مع الولايات المتحدة ، للأراضى المختلفة المنخفضة (هولندا) . ومع هذا . . كانت صيغة المخاطبة لاتزال شخصية ، لقد كان رئيس جمهورية راجوسا الذى استعمل لقب (أى قبيش) قد خوطب فى الوثائق العثمانية بالكلمة وبحار راجوسا . ويشبه ذلك فى الخطابات إلى فينيسيا أو مناقشة أمور البندقية ، ويتحدث الكتاب العثمانيون عادة عن الدوج أو

السيبوريا أكثر منها عن الجمهورية لقد كان كاتب جلبى - الذي كتب فى ١٦٥٥ - قادراً على التمييز بين جمهورية فينسيا الاوليغاريكية وجمهوريات الأراضى المختلفة ، وكرومويل فى إنجلترا ا لديمقراطية ، وأيضًا إعطاء بيان مختصر للإجراءات الانتخابية .

فى مسائل تنظيم الحكومة . . يقول إن دول أوروبا مقسمة إلى ثلاث مدارس أو (مذاهب) ، كل مذهب أسسه واحد من الحكماء ذوى المكانة العالية ، أما مدرسة أفلاطون فتسمى ( ) وأرسطو ( ) و (ديموقريطس) أما المونارکى . . فتعنى أن كل الناس تطيع حاكمًا واحدًا حكيما وعادلا وقد اتبعت هذه الطريقة بواسطة معظم حكام أوروبا . أما فى ( ) يكون الحكم فى يد مجموعة من الناس البارزين الذين يكونون مستقلين فى معظم الأمور ، ولكن يختارون واحدًا منهم ليرأسهم . وقد نظمت دولة فينسيا على هذا الأساس . أما ( ) فيكون الحكم فى أيدى الرعايا الذين يكونون بهذا قادرين على حماية أنفسهم من الطغيان . وتختار كل قرية واحدًا أو اثنين من حكامها المشهود لهم بالكفاءة، وترسلهم إلى الحكومة حيث يكونون مجلسًا ، ويختارون قائدًا من بين أنفسهم وهذه الطريقة يتبعها الانجليز والهولنديين.

إن جلبى يعطينا وصفًا مختصرًا للمجالس المختلفة (ديوان) فى فينسيا ، بل وحتى إجراءات التصويت . كل عضو مجلس يكون فى يده كرتان ( ) مثل زراث واحدة بيضاء والأخرى سوداء ويطلق عليها ( ) بعد المناقشة فى الديوان يعبر الجالسون فيه عن رغباتهم بإسقاط هذه الكرات السوداء أو البيضاء .

وهناك كاتب من بداية القرن ١٨ كتب فى شئون أوروبا قد حاول شرح معنى المصطلح ( ) ، ( ) الذى يستخدم فى فينسيا وهولندا وأماكن أخرى ، فهو يقول « فى مثل هذه الدولة . . ليس هناك حاكم منفرد ، ولكن كل شئونها تعالجها مجموعة من الرجال القياديين ، وهؤلاء الرجال ينتخبون بواسطة الشعب ، » ونفس المؤلف يعرّف سويسرا بأنها جمهوريات متحدة أو مجتمعة ( ) ولكن كل واحدة منها تعتبر جمهورية منفصلة . وهو يقول أيضًا إن هذا الاصطلاح يستخدم بالنسبة لهولندا، ولكن مع اختلاف طفيف واسمه ( ) ، وفيه تكون مجموعة من الرجال تصدر

القرارات ، ولكن هناك رجلاً واحداً ينفذها . أما بولندا فقد لاحظ مع بعض التبرير أنها مملكة وجمهورية في آن واحد [١٨] ، وفى القرن ١٨ لاحظ الزوار العثمانيون أيضًا المؤسسات الأوروبية الغربية مثل المدن الحرة .

فمحمد سيد أفندى الذى زار تولوز وبوردو فى طريقة إلي باريس ، يصفها بأنها مدن حرة ( ) ؛ حيث تحمى المدينة حامية من جنود محليين خاصة فيها ، ويرعى شئونها برلمان يرأسه رئيس . وكلتا الكلمتين ، من اللغة الفرنسية نسختا فى التركية الغربية [١٩] . لقد استعمل المؤلف من بداية القرن ١٨ فى استقصائه لأحوال أوروبا نفس المصطلح ( ) حر ، وكذلك الجمهورية ( ) لوصف ميناء دانزج ، الذى تمتع بإعفاء من كل السلطة الامبراطورية والضرائب . وهناك كاتب آخر من القرن ١٨ يصف بنيات وتركيب الامبراطورية الرومانية المقدسة ، مستخدما الاصطلاحات « حرة » وجمهورية لوصف هذه الكيانات، ذات الامتيازات فى نطاق الامبراطورية كسوابيا [٢٠].

ولقد تكلم بعض الزوار العثمانيون عن أن المجريين ينعون حريتهم السابقة ، لقد دخل الاتراك المؤسسات الجمهورية مظهراً جديداً بعد الثورة الفرنسية ، عندما كان الامبراطور ية العثمانية ألا تقصر تعاملها مع الجمهورية الجديدة فى فرنسا ، ولكن يمتد هذا التعامل ليصبح مع الجمهوريات الأخرى ، وبعضها كان على حدود الدولة العثمانية . . وكان على الأسلوب الفرنسى ، وبينما كانت فرنسا ، وتركيا فى حرب . . كان وصول الأفكار الفرنسية للاتراك مدعمًا ، ومع ذلك . . فإن السرعة والقوة اللتين استطاع بهما جيش تعداده أقل من ٢٠٠٠٠ أن يحتل مصر لمدة ثلاثة أعوام ، قد ترك انطباعا عميقا لدى الاتراك . وهكذا أيضًا كان اتساع وعدالة الحكم الفرنسى ، وهذا يمكن ملاحظته من بين الأشياء الأخرى عند المؤرخ المصرى الجبرتى ، الذى حفظ لنا فى عدد من الأعمال التاريخية تسجيلا معاصراً للانطباعات لدى عضو من العلماء المصريين عن الفرنسيين المختلفين لمصر .

فى ١٨٠٢ انسحب الفرنسيون من مصر وجزر لونيا ، وتم إرسال سفير عثمانى جديد إلى باريس هو خالد أفندى ، مكث حتى ١٨٠٦ ، وكانت تعليقاته ذات فائدة

اخبارية ؛ نـظرًا لأن الفرنسيـين لم يكن لديهـم ملك . . فلم يسـتطيعوا أن تكـون لهم حكومة . بل أكثر من هذا نتيجة لخلو كرسى السـلطة . . فإن معظم المناصب العالية قد شغلت بواسطة صـفوة الناس ، ومع أنه كان لايزال هناك القلـيل من النبلاء . . إلا أن القوة المؤثرة ظلت فى أيدى العامة .

وهكذا . . لم يكونوا قادرين على تكوين ولـو جمهورية . ونظرًا لأنهم لم يكونوا أكثر من مجموعة من الثوريين ، أو على حد التـعبير التركى مجموعة كلاب . . فإنه لم يكن محتملا بأى شكل أن يحدث ولاء أو صـداقة بين أية أمة وبين هؤلاء الناس . لقد كان نابليون كلبا مسعورا ، يجاهد لكى يحضر ويجعل كل الدول فى نفس الظروف التى تعانيها بلده . . إن تاليران كاهن فاسد والباقين مجرد لصوص [٢١] .

فى ٢٩ مايو ١٨٠٧ . . أقصى أول السلاطين المصلحين العظام سليم الثالث ، وقد احتفلت القوى الرجعية بهذا عن طريـق مذبحة للموالين للاصلاح . وبعد عام أو اثنين من هذه الأحـداث كتب أحمد اسـيم افندى المؤرخ السـلطانى تاريـخا لأعوام ١٧٩١ - ١٨٠٨ ، الذى يحمل انطباعا عن حركة الاصلاح بشـكل عام ، والتأثير الفرنسى بشكل خاص . لقد كان سلـيمًا بشكل عام فى جانب الاصلاح ، الذى كان يـأمل فى استعادة القوى العسكـرية الفاشلة للامبراطورية وتمـكنها من مواجهة اعدائها . وفـى فقرة مهمة حدد مثالـها بروسيا ، والتـى يقول إنها قد بـرزت من ضعفها وبـربريتها وأصبـحت قوة عظيمة ، بتبنيهـا العلوم الغربية والتكتيك ، ولكن استعداده لقـبول الأساليب الغربية لم يمنعه من أن يكون ضد المسيحية واعتبار كل المسيحيين كأعداء للإسلام . وفى اعتقاده أن الاتفاقات مع هذه القوى لاتجلب إلا الشر . ولقد كـان معاديا لفرنسا بالذات واستهزاؤه تهكم من العنصـر المعادي لفرنسا ، أو المعارض لها البروفرنس فـى تركيا ، ووصفه بأنه ساذج مخدوع لم يكـن لديه الكثير ليقولـه عن الشئون الداخلية فى فـرنسا ، وقد كان هذا سلبيا ويقول « أن الجمهورية الفرنسية مثل فرقعة المعدة المقززة » وتتكون مبادئها من « هو الدين ومساواة الغنى بالفقير » .

واحد من أكثر المؤسسات الغربية غير المفهومة للملاحظ المسلم ، هو مجلس التمثيل المنتخب .

إن كاتب جلبى ، كما رأينا يعرض ملاحظات قليلة عن المؤسسات الجمهورية الديمقراطية ولكن ضئيلة جدًا . أو مقالة عن أوروبا غير معروفة سوى لشكل ضئيل . ولم يكن لدى باقى الكتاب العثمانيين شىء يقولونه فى هذا الموضوع ، وهناك بعض الاشارات القصيرة العرضية عن الهيئات المنتجة فى إيطاليا وفرنسا وهولندا ، وهى تظهر اهتمامًا قليلا مع عدم تفهم لها .

إن أول محاولة جديرة بالذكر لأبى طالب خان الذى زار إنجلترا فى نهاية القرن ١٨ ، وهو خلال سرد طويل وعام وودى (انظر ص ٢٥٥) إلى حد ما ، ولكنه لايشير سوى إشارتين قصيرتين لمجلس العموم ، الذى زاره فى صحبة بعض الاصدقاء والانجليز .

فى الأول بعد ملاحظة شىء غير مستساغ مؤداه أن الأعضاء الذين يخطبون يذكرونه بقطيع من الببغاوات فى الهند ، لاحظ أن مجلس العموم يخدم غرضا ذا ثلاث اتجاهات وهو تسهيل جمع الضرائب للدولة ، والحفاظ على الملتزمين من الاخطاء ، والإشراف على شئون الحكم والوزراء والشئون بشكل عام .

فى فقرة ثانية . . يعلق أبو طالب بشكل قصير ومختصر على أعضاء مجلس العموم وأسلوب انتخابهم ، ومدى الواجبات والالتزامات والمهام المخصصة لهم . ومن بين هذه المهام لاحظ مع بعض الدهشة تحديد عقوبات المجرمين ، وإصدار بعض القوانين ، وقد كان هذا ضروريا نظرًا لأنهم ليسوا كالمسلمين ؛ فهم لايمتلكون قانون سماويا ، وهم لذلك يعملون على إصدار قوانينهم الخاصة ، طبقا للاحتياجات الضرورية للوقت والظروف ، وطبيعة الأمور وخيرة القضاء .

فى هذه الإشارة للمهمة التشريعية للبرلمان ، لمس أبو طالب واحدة من أعمق الاختلافات بين الإسلام والمسيحية ؛ فلدى المسلمين المؤمنين لم تكن هناك قوة إنسانية

تشريعية . . إن الله هو المصدر الوحيد للقانون ، والذى ينشره من خلال الوحى ، إن القانون الإلهى ا لشريعة فى اللغة العربية ينظم كل مظاهر الحياة الإنسانية . إن القوى الأرضية ليس لها الحق فى إصدار القوانين ، أو حتى تعديلها ، ولكن مهمة هذه القوى تأكيد وتقرير هذه القوانين لا أكثر . المجال الوحيد الذى بقى أساسا هو التأويل ، وهو مهمة العلماء المؤهلين ، أساتذة القانون الإلهى . فى الواقع . . عند التطبيق كان الموقف مختلفا إلى حد ما عن النظرية فى كثير من الأمور ، كانت تلك القوانين الالهية يتغاضى عنها ضمنيا ، أو عن طريق التأويل . وإعادته ونظرًا لأن الظروف المتغيرة تجعل القانون الالهى غير مناسب وغير واف بالغرض . . فإنه قد أضيف إليه أو عدل بالقانون المعتاد أو ببساطة بإرادة الحاكم . ولكن كل هذا كان ممارسة وليس نظرية فى الأساس . . كان الله هو المشرع الوحيد ، أما السلطات الإنسانية . . فهى لاتستطيع أكثر من التأويل والتنظيم والتعزيز .

هناك بعض الإشارات الإسلامية المبكرة للممارسة المسيحية تعطى وجهة نظر مشابهة بخصوص الجانب المسيحى بل وتبالغ فى تحديثها عن « شريعة المسيحيين » ، التى تدرك بالقياس إلى تلك الخاصة بالمسلمين . وفى وقت ما . . أصبح من المفهوم أن العالم المسيحي له مفهومه المختلف لطبيعة القانون ، وأسلوب مختلف فى إدراك وتحقيق أو تطبيق العدالة .

والذى يدهشنا أن الاشارات الإسلامية المبكرة للإجراءات القضائية الأوروبية كانت عدائية ومختصرة لها ؛ فعلى سبيل المثال هناك زائر من العصور الوسطى أعطانا وصفا لمحاكمة فى أشكالها المختلفة .

ان لديهم عادات غريبة ؛ فمثلا إذا اتاهم أحد يتهم آخر بالتزوير . فإن كلا منهما يختبران بالسيف ، والذى يحدث أن يذهب الرجلان المتهمان مع اخوانهم واقربائهم ، وكل واحد منهما يعطى سيفان ، يمنطق بأحدهما حول الخصر ، ويمسك بالآخر فى يده . ثم يقسم المتهم بالتزوير بالقسم المأخوذ به لديهم على أنه برئ من التهمة الموجهة

له ، ويقسم الآخر على أنه قال الحقيقة ثم يركعان على مقربة من بعضهما باتجاه الشرق ثم يبدآن القتال حتى يقتل أحدهما الآخر أو يعجزه .

واحدة أخرى من عاداتهم الغريبة هى الاختبار بالنار ؛ إذا اتهم شخص ما فى أمور الأملاك والدم ، يأخذون قطعة من الحديد ويسخنونها فى النار ثم يقرأون شيئا من التوراة والانجيل عليها ، ثم يثبتون عصوين رأسيا فى الأرض ويأخذون الحديد من النار بواسطة ملقاط ، ويضعونه على نهاية كل من العصوين . ثم يأتى المتهم ويغسل يديه ويلتقط قطعة الحديد ويمشى بها ثلاث خطوات ، ثم يسقطها ثم تربط يده بالاربطة ، وتختم بختم يحفظ تحت المراقبة ليوم وليلة . وفى اليوم الثالث إذا وجدوا سائلا خرج من بؤرة الحرق . . فيعتبر مذنبا ، واذا لم يجدوا فهو برئ .

عادة أخرى من عاداتهم الاختبار بالماء ، وهذا يعنى أن المتهم تربط يداه ورجلاه بحبل ويدلى فى الماء ، فإذا طفا على سطح الماء فهو مجرم ، واذا غاص فهو برئ ، فهم يعتبرون أن الماء قد قبله . العبيد فقط هم الذين يتم اختبارهم بالماء والنار أما الاحرار فإذا اتهموا فى شىء من أمور الأموال والاملاك يقل عن ٥ دينارات . . يذهب الطرفان بالعصى والدروع ويتحاربوا حتى يعجز أحدهما .

فإذا كان أحد الطرفين امرأة أو معوقا أو يهوديا . . فهو يعين وكيلا أو نائباً أو ضامنًا لـ ٥ دينار ، وإذا سقط المتهم يجب أن يصلب وتصادر كل أمواله ويأخذ خصمه عشرة دنانير من أملاكه .

هذه الفقرة ذكرها القزوينى من عصرى ، ولذلك فهى ربما تشكل جزءًا من خبر إبراهيم بن يعقوب .

ويعطينا أسامه بن منقذ وهو سورى معاصر للصليبيين ، وصف شاهد عيان للغزال فى المدينة المحتلة بواسطة الصليبيين وهى نابولى (نابلس) فى فلسطين :

« يوما فى نابلس رأيت غزالا (للاختبار) ، وكان السبب أن بعض قطاع الطرق المسلمين قد نهبوا إحدى القرى فى نابلس ، واتهموا واحدًا من الفلاحين بأنه أرشد

قطاع الطريق فهرب الفلاح ، ولكن الملك قبض على ابنائه ، فرجع الرجل وقال « أريد العدالة سـأتحدى الرجل الذى اتهمـنى بأننى أرشدت قطاع الـطرق للقرية » وحيـنئذ قال الملك للـسيد الذى تدخل هذه الـقرية فى اقطاعـه « احضر أحدا ليحاربـه » فذهب إلى القرية ووجـد حدادا وأمره بأن ينازله ، ولكـن مالك الأرض يخاف أن يقتـل الفلاحون الذين يعملون لديه وتتوقف الزراعة .

لقد رأيت هذا الحداد ، كان شابا صغيرًا قويـا ، ولكن ليست لديه خبرة ولاجلد . فهو يقاتل قليلا ثم يجلس ويطلـب ماء ليشرب . . وكان الخصم الآخر عجوزا ، ولكنه قوى الإرادة ومحارب . جاء الفيكونت وهو رئيس المكان أو المسئول عنه ، وأعطى كلا منهمـا هراوة ودرعا وحبلا ، والنـاس يؤلفون دائرة حولـهما . ثم بدأ القـتال . ضغط الرجل العجوز على الحداد وجعله يتراجع فى الحلـقة نحو المتفرجين المؤلفين للحلقة ، ثم رجـع إلى مركز الحلقـة . واستمرا فى ضرب بـعضهما حتـى أصبحا كعمـودين من الدماء . وقد استغرق النزال وقتا ، والفيكونت يصيح بهم « أسرعوا » وقد أفاد الحداد من خبراته فى الطـرق بالمطرقة ، أما الرجل العجوز . . فقد بدأ يـضعف فضربه الحداد ضربة أسقطـته وسقطت الهرواة تحت ظهـره ، ثم ركع الحداد ناحيته وأراد فقـأ عينيه ، ولكنه لم يستطع فعل هذا بسبب تـدفق الدم من عينيه . لذلك . . وقف وجعل يضرب رأسه بالهراوة ، حتى قتله ، ثم ربطه بالحبل حول عنقه وسحبه وعلقه منه . وجاء سيد الحداد وأعطاه عباءته وجعله يركب على حصانه ويذهب .

هذا إجراء بعد الفهم واجراءاتهم القانونية ألا فليلعنهم الله [٢٦] .

إنه من السهـل أن نفهم تفرد المسلم المتـحضر المتعود على الاجراءات القـانونية فى محكـمة القاضـى بمثل هذا النـوع من القانـون والعدالة . ولكـن الاجراءات القضـائية الأوروبية لم تزل عـلى مستوى عقاب النـزلاء ، وقد كان الملاحون المسلمـون المتأخرون الذين كانت لديهم الفرصة لملاحظتهم عن قرب أكثر إيمانا فى تعليقاتم . فى القرن الثانى عشر . . لاحظ ابن جبير ، وهـو زائر اسبانى مسلم لسوريا أن الفرنجة يـعاملون الرعايا المسلمون الخاضعين لهم بعدالة ، وقد وجد هذا سببا للازعاج والقلق . وفى نهاية القرن

الثامن عشر . . عبر عن أحاسيس مشابهة المؤرخ المصرى الجبرتى الذى وصف القوات الفرنسية التى تحتل القطر ، وأعجب بنظامها فى التعامل مع السكان المدنيين ، وخضوع سلطتهم للسلطان والاجراءات القضائية على النقيض من الطغيان العرفى المتقلب ، الذى تعود عليه ، ولقد أبدي دهشة من الأسلوب الذى حوكم به قاتل كليبر خليفة نابليون ونائبه وقائد القوات فى مصر بعد رحيل نابليون .

ويقول الجبرتى إن الفرنسيين طبعوا أحداث ومداولات المحاكمة بثلاث لغات هى الفرنسية والتركية والعربية ، وهو كان يود أن يسقطها من تاريخه نظرًا لأنها طويلة ومكتوبة بالعربية الركيكة ، ولكنه قرر أن كثيرًا من القراء يودون معرفة شىء عنها ، ليس فقط من أجل المعلومات التى تعطيها عن الحدث الفعلى ، ولكن أيضًا من أجل إلقاء الضوء على أسلوب العدالة الفرنسية ، وأسلوب تنفيذ القواعد بواسطة هؤلاء الناس ، والتى لاتتبع الدين (أى القواعد) ولكنها تتم باستخدام العقل . وقد لاحظ أن الدعوة كانت مهذبة « ان شخصا غريبا طائشا من مكان بعيد قد قتل رئيسهم غدرًا وأمسكوه ويده ملطخة بالدماء . والآن هم لم يقتلوا من وفاه بأسمائهم ، مع أنهم أمسكوه والسلاح الذى قتل به فى يده ، ولايزال يقطر من دم رئيسهم . وقد عقدوا فى محاكمة واحضروا هؤلاء الذين وشى بهم واستجوبوهم كلاً على حدة ، ومع بعضهم ، ثم أصدروا الحكم عليهم طبقا للإجراءات القانونية ، وأطلقوا سراح مصطفى أفندى البورنسانى الخطاط حيث لادلائل أو دعوة » لقد تأثر الجبرتى بعمق لإصرار الفرنسيين على إقامة الإجراءات القانونية باستعدادهم لإصدار سراح واحد من المتهمين ، الذى لم تكن هناك أدلة كافية ضده . ولكن الجبرتى بمرارة ناقض هذه الأسباب « الأعمال الشائنة التى رأيناها ترتكب بواسطة الجنود الأوغاد ، الذين ادعوا أنهم مسلمون وتظاهروا بأنهم مقاتلون فى حرب مقدسة ، وقتلوا الناس ودمروا الكائنات الإنسانية ، لا لشىء إلا إرضاء شهواتهم الحيوانية [٢٧] .

لم يكن كلا الملاحظين المسلمين يعجبون بالإجراءات القضائية الغربية ، إن أبا طالب كان له رأى أقل موافقة واستحسانا ؛ حيث إن سوء حظه جعل ترزيا فى لندن يقاضيه

من أجل ١٠ شلنات ، وأمره القاضى بأن يدفع هـذا المبلغ وفوقه ٦ شـلنات غرامة لأنه لم يعط المدع حقه .

لم يتأثر بـنظام المحلفين حيث كان القـاضى يستطيع إبطال قـرار المحلفين ، وفرض وجهة نظـره أو مطالبتهـم بإعادة النظر فـى قرارهم . . ولم يكن هـذا كل شىء ، وإذا فشلت هذه الإجراءات . . كان مـن حق القاضى أن يغلق على المحلفـين ، بينما يكون هو والمحـامون فى مكـان آخر من دار المحـكمة يأكـلون ويشـربون نسـبة على حـساب الحكومة . وكان المحامون أكـثر إثارة للازعاج بالنسبة لأبى طالـب من المحلفين ، حيث كانوا يمارسـون مهنة غريبـة من الإجراءات القضائيـة الإسلامية . وقد تنـازل أبو طالب بالقول أن القضاة الإنجليز « شرفاء ويخافـون الله معصومون ضد مكر وحيل المحامين » ولكنه مع ذلك لاحظ إن طـول مدة المحاكمة وارتفاع تكاليفهـا يؤدى إلى رفض العدالة للمدعى .

حتى الـقضاة أصحاب النـوايًا الحسنة ، ربما سمـحوا للمحامـين بتشويش القـضية وإرهـــاب الشهـود . وقد لاحظ أن حـكم القانـون غالبـا ما يتـعدى املاءات العـدالة الطبيعية ، وحتى القاضى الذى كان يخاف الـله لايستطيع أن يتخذ قرارًا منصفا ، دو ن ان يخرق هو نفسه هذا القانون ، الذى هو من صنع الإنسان [٢٨] .

بشكـل عام . . هؤلاء المسلـمون الذين كلـفوا أنفـــهم عناء ملاحـظة الإجراءات القضائية والتشريعية الأوروبية كانوا متأثـرين بها ويميلون إليها . إن الشيخ المصرى رفاعة الطهطاوى الذى كـان فى باريس ١٨٢٦ - ١٨٣١ ، قد كلـف نفسه عناء ترجـمة النص الكامل للدستور الفرنسى .

لم يكن الشـيخ رفاعة قد استوعب تماماً فـكرة المساواة الفرنسية ، الـتى كما لاحظ لاتمتد إلـى الشئون الاقتـصادية « إن المـساواة لم تـوجد سوى فى كلـماتهم وأفعـالهم ، وليست فى ممتلكاتهم ، حقيقة لم يكونوا يرفضون أصدقائهم ، بشرط أن يطلبون منهم قرضا وليس هبة، وحتـى ذلك لايحدث، إلا اذا كانوا متأكدين من أن القرض سيرد » لاحظ الشيخ رفاعة أن الفرنسيين « أقرب إلى الاقـتصاد منه إلى الكرم . . وفى الحقيقة

فإن الكرم ينسب إلى العرب » . ومع ذلك . . فلقد تأثر رفاعة بمبدأ المساواة الفرنسى قبل القانون ، ووصف هذا بأنه « واحد من أوضح الأدلة على الوصول إلى درجة عالية من العدالة فيما بينهم ، وإلى التقدم فى الفنون المتحضرة . إن تلك التى ينادونها بالحرية ، والتى يناضلون للوصول إليها هى نفس ما نطلق عليه العدالة والمساواة والإنصاف ، وذلك بسبب أن معنى حكم الحرية هو توطيد الحرية قبل القانون ، « لقد دهش الشيخ رفاعة بشكل خاص ؛ لوجود قوانين محدودة ، وأثار الانتباه إلى مغزى الضمانات الدستورية البرلمانية قد جاء أكثر وأكثر ؛ ليستحوذ على عقل زوايا أوروبا من مسلمى الشرق إلى حد كبير فى البداية أكثر منه تطورا اقتصاديا ، وهنا كثير منهم أملوا فى أن يجدوا المفتاح ، الذى يكتشفون به أسرار التقدم الغربى ، ويشاركون فى مزايا الثورة والقوة الغربيين .